المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن بعد المائة

١ مايو سنة ١٩١٦ — ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٣٣٤

آراء حديثة

في نشوء الحضارات

مضى زمن بعيد منذ أن أقلع الاحيائيون عن الاخذ بفكرة التوالد الذاتي [1] وهم إذ يعتقدون أن بعض الاحياء لا بد من أن تكون قد تطورت فنشأ بتطورها أنواع جديدة، تجدهم بجانب هذا على يقين من أن العضويات الحية جميعاً تشترك في وحدة الاصل. وقد يدلك على شدة اعتصامهم بهذه الحقيقة أنهم اذا عجزوا في بعض الظروف عن اثبات هذه الوحدة سلّموها وفرضوها؛ حتى لقد تجد أن آراءهم كلها قائمة على أن كل حي إنما يتصل في النهاية بغيره من الاحياء.

ومنذ سنين بدى في عالم الفكر رأي جديد يقول بأن العقل الانساني، بانتباهٍ أو بغير انتباه، قصداً أو اعتباطاً، إنما يعمل على نمط يخالف هذا النمط، بمعنى أنه قادر على أن يُنشِّئ الثقافة جملة من طريق الاستجابة الذاتية لمؤثرات البيئة، بدل ان يتقدم نحو المدنية بخطًى ثقيلة متتالية، متنقلا في منازل التثقيف، درجة بعد درجة، وحالاً بعد حال، حتى لقد قيل بأن الحضارات العظمى انما هي محصلة اجتماع أمم بأسرها لا وجوه انفرادي

(١) Spontaneous generation ومؤداه أن الحي يتولد من غير الحي، والرأي العلمي الذي ثبت الآن أن الحي لا يتولد الا من حي مثله.

فقد نتكلم مثلاً عن حضارة المكسيك أو الصين أو الهند، ونعني غالباً شيئاً خاصاً بكل منها وإنه بكليته متأصّل فيها.

ولسوف نرى أن تولّد الثقافة تولداً ذاتياً مذهب باطل مضلل، وبالرغم من أن نشوء الثقافات نشوءاً ذاتياً أمرٌ يتعذر أن يكون قد وقع في بقاع مختلفة من كرة الأرض، فإن كل ما لدينا من العلم بنشوء الثقافات وانتشارها، يؤيد أن أكثر الجماعات الانسانية التي جاوزت من الثقافة طور الاستجماع[1] ومارست ضرباً ما من ضروب الفن أو الصناعة، إنما تدين بثقافتها تلك الى جماعة أخرى ورثت منها وأخذت منها. وهذا يدل، كما يدل في حالات الحياة المنظمة عامة، على أن كل جماعة لم تتجاوز من الثقافة حد الاستجماع[2]، إنما تتصل في النهاية بكل جماعة غيرها من الجماعات الانسانية. ذلك بأنها تملك قسطاً من المدنية التي كدّ الانسان في استحداث أسبابها على مرّ الدهور. ولا نعني بهذا ان أعضاء أية جمعية من الجمعيات ممنوع عليهم أن يخترعوا شيئاً جديداً كلاً. بل نعني أن المرجحات التي تنفي القول بأن جمعيتين قد استطاعت كل منهما بمفردها أن تنشىء ثقافة من مظاهرها على الطرف والنسيج والزراعة مثلاً، إنما هي مرجحات فيها من القوة ما يحملنا على الاعتقاد بأن نشوء حضارة كل منهما مستقلة عن الأخرى، أمرٌ لم يحدث فعلاً.

ولقد قام الآن في روع الاجتماعيين، من الأثر الذي قام في روع الاحيائيين من قبل فصاروا يأخذون شيئاً بعد شيء بفكرة الاتصال والاستمرار، ويبنون عليها استنتاجاتهم حتى عند ما يبدو مجزوم عن اثبات ذلك قطعاً أو احتمالاً. فكل جمعية، وفقاً لهذا الرأي ما عدا جمعية واحدة بالطبع[3]، تدين بثقافتها الى جمعية أخرى. وعلى هذا نجد اذا ما تتبعنا

(١) الثقافة عند القائلين بهذا الرأي حدان: الاول حد استجماع الطعام ثم يليه حد انتاج الطعام. وفيما سيأتي من البحث بيان شيء من الفروق التي تفصل بين الحدين.

(٢) سنجري بعد الآن على استعمال عبارتي الجماعات المستجمعة والجماعات المنتجة: لتدل الاولى على الجماعات التي تجمع الطعام Food-gathering والثانية على الجماعات التي تنتج الطعام Food-producing. فاذا قرأت ذلك فاعلم أن المعنى منصب على جمع الطعام وانتاجه. وكذلك سنجري على استعمال عبارة «طور الاستجماع» لتقابل عبارة Food-gathering stage، وعبارة «طور الانتاج» لتقابل عبارة Food-producing stage.

(٣) هي بالضرورة الجمعية الاولى التي أنشأت أصول المدنية.

الأمر واستقصيناه ، خيوطاً ، تمتد من مختلف بقاع الأرض وتنتهي عند مركز واحد ، هو بالضرورة النمط الذي قاض بأصول الحضارة . ولا شك في أن الإكباب على درس الحقائق درساً واسعاً ، ووزنها بحكمة ، إنما يؤدي بنا حتماً الى هذه النتيجة . والرأي الآن على أن المدنية شيء قائم بذاته وأن له نمطه الخاص في التطور والنشوء .

ليست المدنية بشيء من خلائقه الثبات وعدم التغيير ، بل انها في الأكثر عرضة لتطورات دورية . ومن أخطر الأشياء التي يقف الباحث الاجتماعي نفسه على درسها وتقصيها ، معرفة الأسباب التي تسوق الى تلك التطورات . فكثيراً ما حدث في الماضي أن جماعات عظيمة قد انتابها الانحلال والتدهور . ولكثرة ما حدث ذلك ثبت في روع بعض الباحثين أن هنالك سنة ثابتة للنشوء والانحلال يخضع لها كل كائن اجتماعي . أما الرأي السائد الآن فيثابذ ذلك في حين أن النزعة الحربية اذا درست علمياً كما يدرس كل نظام اجتماعي آخر ، فانه يتضح لنا أن الانسان قد تلقى على مدى العصور علماً خاصاً ازدادت مع تبحره فيه نزعته الى العنف ، وان الجماعات الانسانية في نشأتها الأولى كانت جماعات مسالمة محبة للهدوء والطمأنينة ، وان فن الحرب انما نشأ وترعرع اتفاقاً ، فكان بمثابة ماء خبيث علق بجسم كان بريئاً منه ، أو بمثابة نبات طفيلي شب وربى حتى لقد بلغ من النماء حداً ينذر بفناء الجسم الأصيل الذي علق به . أما اذا استطاعت هذه البحوث الحديثة أن تعدل العقلية العامة وتردها الى الصواب تلقاء هذه الحقيقة ، فان العلم يكون قد عوض على الانسان بمقدار ما قد أخل وضيع بتشجيعه على إقامة الحروب .

***

يقطن الأرض الآن جماعات بلغ كل منها طوراً من الثقافة يختلف عن الطور الذي بلغه غيرها . ففي أحد الطرفين جماعات منظمة بلغت من النشوء حداً استحدثت فيه كل أسباب الحضارة ، وحازت وسائل استطاعت بها أن تحكم في الزمان فتجعل الساعة الواحدة بمثابة جيل في زمن مضى ، وان تحكم في المكان فترده بالسرعة كأنه فناء ودثور ، تاهيك بما تتضمن حياتها الفردية والاجتماعية من التعقد والاشتباك . وفي الطرف الآخر جماعات لم تتقدم تقدماً يذكر في الفن أو الصناعة ، فلا تزال عائمة في مناكب الأرض باحثة عن موارد

الغذاء ، تأخذها من حيث يتفق لها أن تقع عليها ، وقد تجد جماعات من هذا الطراز في أطراف من الأرض لم تغزها المدنية ، كعراج الهند الجنوبية ومجاهل أمريكا وجنوب إفريقية ، وغير ذلك من البقاع . وفيما بين هذين الطرفين تقع على عدد عظيم من الجماعات تتدرّج ثقافتها تدرجاً يقرّبها من أحد الطرفين . ومن أجل أن نحاول تفهم طبيعة المدنية ، ينبغي لنا أن لا نهمل النظر في جملة من هذه الجمعيات ، وان لا نخرج بعضها من حسابنا .

ذلك بأن المشكل الأساسي الذي يصادف كل باحث في أسباب نشوء المدنية ينحصر في الفحص عن حقيقتين جوهريتين ، فانه من الجلي أنه في غمر من العصور عريق في القدم كانت الأرض مأهولة بجماعات قنعت بالاستجماع (جمع الطعام) فوقفت ثقافتها عند هذا الحد ، ولم تنزع الى زراعة ما تنتات به أو تعمل على ايلاف حيوانات تغتذي بلحومها أو تحتلبها لتنتفع بألبانها . فعلى الباحث أن يعرف كيف ولماذا استطاع الانسان ، بعد أن ظل في الدرجة الاستجماعية عصوراً قد ترتد الى آلاف السنين ، أن يستكشف كيف يزرع نباتات وان يربي حيوانات لتغذي بها ، فانتقل بذلك من الحالة الاستجماعية الى الحالة الانتاجية ، وقفز من درجة ثقافية الى أخرى تعلوها وتبزها تقدماً وارتقاء . هذه هي الحقيقة الأولى التي ينبغي للباحث الاجتماعي أن يفحص عن أسبابها . أما الحقيقة الثانية : فان يعلل لماذا عجزت بعض الجمعيات البشرية عن أن تخطو هذه الخطوة ؟ ففي كل الأطوار التي قطعها الانسان نحو التمدن تقع على هذه الجماعات الاستجماعية وكأنها الظهير الذي استندت اليه الحضارة في مأساتها الطويلة . وانك لتجد ان هذه الجماعات فضلاً عن ذلك تقوم مقام الأساس الذي بنى عليه الانسان كل ما أبدع من صور الفن والصناعة وانها كانت المهد الذي يرجع اليه كل أصل من أصول النظام الحضاري . لهذا كان من الضروري أن يفقه الباحث لماذا عجزت بعض الجماعات عن أن تخطو الى ما وراء المظهر الاستجماعي من الثقافة ، ولماذا دانت جماعات أخر فتخطت ذلك الطور ، ومضت تضرب في الطور الانتاجي .

ومن الطبيعي أن تسأل : ما هي العلاقة أو الرابطة التي تربط الجماعات الاستجماعية العائشة اليوم بمثيلاتها من الجماعات التي أهلت بها الأرض قبل ظهور الجماعات الانتاجية ؟ أيستطيع أن تأتي ثقافة هذه الجماعات البدائية دليلاً يظهرنا على الأسلوب الذي تكوّنت

به الخطوات الأولى التي وجهت الانسان نحو الحضارة ؟ فان مثل هذه الموازنة انما تقوم على أساس من الفنون والصناعات المادية . ذلك بأننا لا نعرف شيئاً ما عن المجالي الأخرى التي تجلت فيها حياة الأقوام الأولى التي قطنت أوربا مثلاً ، إلا تلك التي بادت وفنيت منذ أزمان ، فاننا لا نجد لدينا شيئاً يذكر من الشواهد التي قد نتخذها أساساً للموازنة . وانه لما يثير العجب أن الجماعات الاستجماعية التي خلفت لنا بقايا يمكن أن نتوصل بها الى درس التطورات التي انتابت ثقافتهم ، هي وحدها الجماعات التي قطنت حقاً في البحر المتوسط منذ عدة آلاف مضين من السنين . أما الجماعات الاستجماعية في غير ذلك من بقاع الأرض ، ما عدا بعض عواذ قليلة ، فلم تترك أي أثر يدل على طرف مما من مدنيتها .

ولسنا نعلم كم من السنين ظلت الجماعات الاستجماعية في آسيا وغيرها من القارات مقيمة في مآهلها الحالية . غير أن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد انها تمثل عملياً أقدم الأقوام التي قطنت البلاد التي تقيم فيها الآن .

***

ولا بأس بأن نورد هنا قائمة بأهم الأقوام الاستجماعية العائشة اليوم في أفريقية : الزنوج والبوشمن .

وفي آسيا : الفدا في سرنديب . بعض القبائل التي يتقدم عهدها على العصر الدرافيدي في جنوب الهند . السيمنج والساكاي في غربه جزيرة الملايو . أهل أندامان . كوبرو في سومطرة . البوتان في بورنيو . قبائل جزر أرو . زنوج جزائر الفيليبين .

وفي أوشيانيا : الاستراليون والطسمانيون .

وفي أمريكا : الإسكيمو . الداتا في حوض نهر مكنزي . البوتوك في نيوفوندلاند (بائدة) ، البايوت في يوتاه . القبائل الكاليفورنية . قبائل جزيرة أرض النار .

على ان بعض القبائل السيبيرية كالتونجوز ، والاوستياك ، وهو قبيل لم يبق

بايلاف الغزال الأحمر ، تقرب كثيراً من هذه القبائل من حيث الثقافة والمدنية ، وإنه من الممكن بقليل من التساهل أن تعدهما .

وبعض هذه الأقوام ضعاف طبيعيًّا وتكوينيًّا . فالزنوج في أفريقية والسِّيمَنْج في شبه جزيرة الملايو والأندمان ، وزنوج الفلبين جميعاً من السلالة القَزَمِيَّة السوداء التي قطنت البقاع التي تأهل بها الآن . اما أهل أوستراليا الأصلاء فهم مثلٌ على سلالة أكثر من ذلك بدائية . لهذا نقول إن نموذجاً بدائيًّا من نماذج نوع الانسان العاقل Homo sapiens بلغت بدائيته حدًّا يفيدنا في بحوثنا هذه ، ما يزال يغشى الأرض وتأهل به بقاع منها .

وهؤلاء الأقوام ، ما عدا استثناء واحد أو استثناءين ، ليس لهم أي أثر في تنمية الفنون أو الصناعات . على أنهم في بعض الحالات قد تأثروا ببعض جيرانهم من القبائل الاستجماعية . غير أننا اذا استخلصنا هذه المؤثرات الخارجية وعزلناها عن حياة هذه القبائل ، فان النتيجة المحتومة التي نصل اليها من وزن الحقائق التي تتبقى لدينا ، هي أن هؤلاء الأقوام قد وقف عاؤهم الثقافي عدداً غير معروف من آلاف السنين . ولكن على شواطىء البحر المتوسط وما يجاوره من البقاع ، نقع على أقوام من الاستجماعيين ضربوا في عالي التطور الثقافي . وهذه حقيقة من أهم الحقائق في البحث عن نشأة الحضارة . لأن كل الاستنتاجات العلمية تحملنا على اليقين بأنه في بقعة من هذه البقاع — المحيطة بالبحر المتوسط — بدأت المدنية تدور بدُورها اليانعة . وهذه الحقيقة فضلاً عن ذلك تركز البحث في بؤرة واحدة . ومن هنا ، نجد اننا اذا فكرنا في نشوء المدنية وتطورها من بدايتها الأولى ، فلا ينبغي لنا أن نوجه أفكارنا إلاَّ الى بقعة بعينها من بقاع الأرض ، وأنه ليس علينا أن ندور بأفكارنا باحثين عن الحقائق التي يقوم عليها البحث في بقاع متناثرة هنا وهنالك .

من الحقائق التي يقوم عليها البحث ، حقيقة انه ليس من الأقوام الاستجماعية العائشة اليوم أقوام يرتبطون بالماضي السحيق . غير أن لهذه القاعدة استثناءين : هما أقوام البوشمن في أفريقية ، والاسكيمو في شمال امريكا وغرينلاند على تباعد ما بينهما . فقد أكَّد الأستاذ « سلاّس » في كتابه « القُدَماس الأقدمون وعالمهم الحاليون » أن في ثقافة هذه القبائل عناصر تتفق وثقافة قطان أوربا الأولين . واذا استثنينا هذه الأقوام فاننا نعجز عن أن نجد

مخلفات تدل على عاء تقافي يماثل الماء الذي وصلت اليه القبائل الاستجماعية في حوض البحر المتوسط فيما قبل التاريخ .

وإنه من الممكن أن ندرس أوجه النشاط التي تجلت فيها أعمال الجماعات الاستجماعية في أوربا . ذلك بأنهم مهروا في صناعة الاحجار وبالاخص في الظران والشرت فهذبوها واتخذوا منها أدوات مختلفة . ومن درس الطبقات الارضية المتباينة التي عثر فيها على هذه المخلفات ومن بقايا الحيوانات التي نقع على عظامها مع هذه المصنوعات ، نستطيع أن نعرف كيف كانت تعيش هذه الجماعات . والدلائل المادية تدلنا على انها عاشت في أوربا ، وبخاصة في فرنسا واسبانيا والمانيا والنمسا ، وفي شمال أفريقية ، وبخاصة في مصر وبلاد العرب وسوريا وفيليقية ، وأنه في بعض أطوار بقائها وصلت صناعاتهم الى جنوب أفريقيا وآسيا .

اسماعيل مظهر

نظام الامومة — Matriarchal System

also = - Matriarchalise. m; Matriarchy. f L. mater (mother); in the Encycl. Dict. Supp. (L. Mater. = mother and Gr. archê = rule).

(١) حكومة الام أو الامهات .

(٢) وضع فيه تحكم الامهات الاسرة أو القبيلة وتكون سلسلة النسب راجعة فيه الى الام لا الى الاب .

(٣) نظام اجتماعي ألفته بعض القبائل البدائية ، تتقدم الام فيه على الاب ، من حيث انتساب الاعقاب والوراثة .